الفعل الدعوي الحديث
وإشكالية القصور المنهجي

بقلم: الدكتور محمد زرمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة باتنة

مقدمة:

يأتي هذا البحث في سياق عملية المراجعة والنقد الذاتي للفعل الدعوي الحديث الذي ما فتئ يتعرض لإصابات قاتلة منذ عقود من الزمن، على الرغم من الإنجازات المهمة التي حققها على المستوى الفكري والحركي والتي لم تستطع أن تخفي مواطن الخلل ومظاهر النقص التي ظلت تتضخم كلما ازدادت التحديات واشتدت وتيرتها، حتى باتت تمثل هاجسا يؤرق المفكرين والباحثين الذين اجتهدوا ما وسعهم الجهد من أجل تصويب المسار الدعوي، لإيقاف نزيف الطاقات والجهود الذي أرهق كاهل الأمة وجعلها تراوح مكانها، وتوجهت دراساتهم وتحليلاتهم نحو تحديد وتشخيص الأمراض والعلل التي تنخر جسم الدعوة وتحرمها من الحيوية والفعالية والتي يعد القصور المنهجي من أهمها وأكثرها ارتباطا بعمق المشكلة.

وتطمح هذه الورقة إلى دراسة إشكالية القصور المنهجي في الفعل الدعوي الحديث، من خلال ضبط مفهومي الفعل الدعوي والمنهج، ومعاينة واقع الفعل الدعوي، وتحديد طبيعة القصور المنهجي ببيان مظاهره وأسبابه وآثاره، ومحاولة البحث عن بعض المؤهلات المنهجية الضرورية لإنجاح الفعل الدعوي.

مفهوم الفعل الدعوي:

الفعل الدعوي هو ذلك الجهد الفكري والعملي الذي يقوم به المسلم لتبليغ رسالة الإسلام إلى الآخرين، سواء كانوا مسلمين

بتذكيرهم وتوعيتهم وتنبيههم إلى ما اعترى أفهامهم من خطأ وقصور، أو ما لحق بعض تعاليمه من الغفلة والإهمال، أم كانوا غير مسلمين بعرض الحقيقة الإسلامية عليهم، ومحاولة إقناعهم بإلهية مصدرها، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، واستيعابها للحقائق الكونية والإنسانية الكبرى، وانسجامها مع أشواق الإنسان الروحية ومطالبه المادية.

وهذا الجهد البشري الذي يحمل فكرة الدعوة ليس فعلا عشوائيا أو ارتجاليا، بل المفترض فيه أن يكون فعلا منهجيا منظما ومحكوما بضوابط شرعية وواقعية دقيقة، بحيث يراعي فيه الإنسان الداعية صحة الفكرة التي يدعولها، والتي تستمد شرعيتها من فقه عميق للإطار المرجعي الموجه، وتتحرك في ضوء وعي تام بطبيعة الواقع وتحدياته المختلفة، وتتم فيه مراعاة منطق الأولويات، وتبني الأساليب الناجعة، والتزام سياسة المرحلية والتدرج، والاسترشاد بالثقافة السننية ليكتسي الفعل الدعوي صفة الإنجاز ويتحول إلى مكسب واضح المعالم.

والفعل الدعوي قد يكون فرديا يقوم به شخص بدافع من نفسه، ويتبع فيه الطرق التقليدية في الدعوة، وهذا العمل الفردي يتطلب مهارات خاصة، ومؤهلات متميزة، ومواهب فطرية تجيد مخاطبة الناس وتصيب مكامن التأثير فيهم بنجاح، وأخلاق عالية تستضيء بنور النبوة وتتحمل ــ بسعة صدر ــ جميع ما يصدر عن المدعوين على اختلاف طباعهم وطبقاتهم، حتى يتمكن صاحبها من الوصول إلى هدفه وتبليغ الرسالة التي يحملها على أحسن الوجوه. وقد يكون جماعيا تضطلع به مجموعة من الأفراد تتبنى فلسفة معينة في التغيير، تنبثق عنها جملة من البرامج والمشاريع والخطط، وتنتظمها مؤسسات متخصصة، وتحكم سيرها قوانين محددة.

غير أن عصرنا اليوم ــ بما يطبعه من تقدم هائل في مختلف العلوم والميادين ــ لم يعد للعمل الفردي الأحادي فيه مكان،

وبخاصة إذا تعلق الأمر بالدعوة، لأن الأعمال التي يقوم بها الأفراد في هذا المجال غير قادرة على سد الثغرة التي يمكن أن تسدها الجهود الجماعية، باعتبار الجهد الفردي محدود المدى، ضعيف الطاقة، وقتي التأثير إذا ما قيس بضخامة التحديات التي تواجه الأمة، والتي تشكل جبهة معارضة قوية لا تستطيع الجهود الفردية المبعثرة أن تصمد أمامها لاختلال ميزان القوى.

لذلك فقد انحسرت الأعمال الفردية ـ في عصرنا هذا ـ لتترك مكانها للمؤسسات المتخصصة التي تعتمد العمل الجماعي المنظم كقاعدة أساسية وشرط ضروري للقيام بالعمليات التغييرية الكبرى التي تستهدف إحداث تحولات إيجابية في بنية المجتمع، وإعادة بنائه على أسس بديلة، لأنه يجمع الطاقات، ويوحد الصفوف، ويضم الجهود بعضها إلى بعض، وينسق بينها ويوجهها لتحقيق الهدف المنشود.

المنهج المفهوم والضرورة:

نعني بالمنهج مجموعة الإجراءات العملية المنظمة التي يتم الاعتماد عليها لتحقيق الأهداف المرسومة. أو هو ـ بعبارة أخرى ـ الجانب الإجرائي أو الأدائي المنضبط: "بالمرجعية الفكرية الموجهة، التي تتدخل في نهاية الدورة الإنجازية خاصة، لتوجه حركة الإنجاز نحو التطابق مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، باعتبارها المقاصد الكلية التي يجب أن يتجه إليها النشاط الإنساني كله"[1].

وعليه، فإن المنهج يعني جملة الخطوات العملية المنظمة التي يجب أن بترسمها الدعاة ليغيروا بها واقع الأمة، ويواجهوا بها التحديات الداخلية والخارجية المفروضة عليهم، ويحاولوا أن يقدموا الحلول العملية الملموسة لكافة المشكلات المطروحة، من أجل قيادة

[1] برغوث، الطيب. الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري وضرورة المنهج. دار الينابيع للنشر والإعلام. الجزائر. ط1. 1993. ص 110

الأمة نحو مستويات راقية في التفكير والسلوك في إطار القيم الإسلامية.

فاعتماد العمل المنهجي المنظم هو سر النجاح في كل فعل حضاري. وإن استقراء عميقا للتجربة الإنسانية في مراحلها الطويلة، تؤكد لنا أن كل الإنجازات الكبرى، والمشاريع الضخمة التي تحققت في حياة الشعوب والمجتمعات، لم يكتب لها التوفيق إلا لأنها كانت ثمرة منهج علمي دقيق لا يترك مجالا للصدف العمياء،والمبادرات العشوائية الارتجالية.

لذلك فإن أي جهد بشري ــ مهما كان بسيطا ــ لا يمكن أن يتم له النجاح إذا لم يكن قائما على منهج سليم، مما يؤكد أن الفوضى والعبثية، والتعامل مع الأمور بسطحية، هي سبب الارتكاس والسقوط، وعامل من أهم عوامل الفشل، وضياع الجهود وتبديد الإمكانات.

فالمنهجية في العمل توفر للإنسان وضوح الرؤية وشموليتها، والنظر الصائب إلى أصول المشكلات ومضاعفاتها، والقدرة على الإحاطة بجوانب القضايا الشائكة واستيعاب أبعادها، وتقدير الخطوات الواجب اتباعها بدقة مبنية على علم صحيح، تجنبه ــ في المقابل ــ الوقوع ضحية النظرة الضيقة، والتعامل العشوائي والسطحي مع المشكلات، ومن ثم التوظيف الأمثل للوقت، والطاقات والإمكانات وعدم إهدار الجهود وتشتيتها.

فبالمنهج يتمكن الإنسان من رسم الأهداف المرحلية والاستراتيجية لعملية التغيير الحضاري، وذلك من خلال قراءة واعية للإطار المرجعي والخبرة الإسلامية، وفقه عميق للواقع الإنساني ببعديه الفطري والمعيش واستيعاب روح العصر، ويستطيع كذلك أن يضع الخطط والبرامج، وأن يحدد المراحل، ويرتب الأولويات ويضبط التحديات، وأن يعد الوسائل والآليات المختلفة، وأن يستفيد منها إلى أقصى حد من أجل إنجاح مشروعه الحضاري: "فمن أوتي المنهج فقد أوتي مفاتيح أسرار التسخير،

وأفسح أمامه طريق النجاح، ومن حرم المنهج فقد انفلت منه زمام الأمر كله، وتحول ما بين يديه من إمكان حضاري وفرص ومؤيدات إلى عدم" [2].

والمتأمل في الكون الذي نعيش فيه لا يعدم الدليل على دقة صنعه وبديع نظامه، فقد خلقه الله على شكل رائع من التنسيق والترابط والتكامل بحيث تخضع كل جزئيا ته وذراته لنظام يضبط حركتها، ويحدد مسارها، ويوجهها نحو وظيفتها، وجعله محكوما بسنن ثابتة، وقوانين صارمة مطردة لا مجال فيها للصدفة أو العشوائية أو الفوضى، قال تعالى: ((خلق كل شيء فقدره تقديرا))[3]، مما يؤكد أن المنهج سنة كونية.

وإن قراءة متأنية وعميقة في المرجعية الإسلامية، تبين أن الإسلام قائم في كل وجوهه على المنهجية والتخطيط. فالقرآن والسنة يؤكدان في كثير من النصوص ضرورة اعتماد التنظيم والتزام المنهجية، ويفرضان على المسلم أن تكون حركته في الحياة إيجابية ومثمرة، خاضعة لمنهج محدد، وخطة مرسومة في سبيل تجسيد قيم الإسلام في الواقع الإنساني.

ومن الأمثلة الكثيرة التي تؤكد ذلك قوله تعالى: ((قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني))[4]، حيث نستشف من كلمة (بصيرة) أن العمل الدعوي عمل منهجي يتطلب العلم والخبرة والإدراك الواضح للأمور، حتى يصبح الموقف الذي يعرض للداعية واضحا في ذهنه كوضوح الأمر المشاهد بالبصر[5]. والقرآن حافل بالتوجيهات التي ترشد المسلم أن ينطلق في كل أعماله من العلم، وأن يستعين به لبناء الأعمال على أساس صحيح بعيد عن الافتراضات الوهمية والمواقف الارتجالية.

---

[2] برغوث، الطيب. الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية. ص 119

[3] الفرقان، 2

[4] يوسف، 108

[5] ابن باديس، عبد الحميد. تفسير ابن باديس. دار الفكر. دمشق. ط3. 1979. ص 524

والدارس لتجربة النبي عليه الصلاة والسلام في الدعوة – طيلة حياته الرسالية – يجد أن المنهج كون لازمة وحقيقة هامة ومطردة في العمل النبوي كله، وأنه كان العامل الحاسم: "فيما أنجزته الحركة النبوية من تحولات كبرى في زمن قياسي نموذجي، أفسح المجال لظهور حضارة رسالية جديدة متوازنة"[6]. مما لا يدع مجالا للشك في أن المنهج فريضة شرعية.

إن المسلم مطالب اليوم أكثر من أي وقت مضى أن يعي قضية المنهج، ويدرك أبعادها في الإطار المرجعي الإسلامي، لأن العصر الذي يعيش فيه يحتم على العاملين في مجال الدعوة أن يكونوا منهجيين، لكونه عصر علم ومناهج وتخطيط وتنظيم وبرمجة، لا مكان فيه للجاهل أو الضعيف أو المغفل.

فميزة هذا العصر هي القوة في كل المجالات: قوة الفكر، وقوة العلم، وقوة الصناعة. وهذه القوة لم يكتسبها الإنسان المعاصر من وفرة الأموال وقوة الرجال، وإنما استمدها من قوة العقول ودقة المناهج والمخططات التي بناها على المبادئ العلمية الصحيحة، والحس المنهجي الدقيق.

فقد أصبح المنهج بالنسبة لرجل التغيير الحضاري الذي يتولى الإشراف على مشاريع التنمية في الدول المتقدمة يعني: "ضرورة من الضرورات الفكرية، بل بداهة من البداهات، وبدونه لن تكون الحركة الفكرية بأكثر من فوضى لا يضبطها نظام، وتخبط لا يستهدف بهدف، ومسيرة عمياء لا تملك معالم الطريق"[7].

وإذا كان الفعل الدعوي الحديث يرمي إلى تجاوز حالات التخلف والفوضى والاستلاب الحضاري، والقضاء على عوامل التهميش والاستضعاف والتبعية، فإن الواقع يفرض عليه أن يكون منهجيا في جهوده حتى يتمكن من التحرك نحو المستقبل في ثقة

---

[6] برغوث، الطيب. الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية. ص 119

[7] خليل، د. عماد الدين. ((لماذا المنهج))، مجلة الأمة، ع 25، 1982، ص 8

وعن بصيرة، ومن إثبات الحضور الإسلامي على الساحة العالمية، ومن المشاركة الجادة في صنع القيم الحضارية التي تحكم عالم اليوم وتوجه مسيرته.

ذلك أن المجتمعات الحديثة تتميز بتعقدها الشديد، واتجاهها ـ في كل أعمالها ـ نحو النظام والمنهجية، واعتمادها التام على الدراسات العلمية الدقيقة، وثقتها في النتائج المتمخضة عنها. وقد أفرز هذا التقدم العلمي علوما إنسانية واجتماعية حديثة تعتمد مناهج متطورة جدا لفهم الإنسان وردود أفعاله، وتركيبة المجتمعات وطريقة نموها وتطورها، وهي تستغل ثمرات هذه العلوم للتحكم في مسيرة النمو في العالم كله، وتبني عليها كل برامجها ومشاريعها.

ومع هذا التطور المثير السريع، تغيرت أساليب التحدي التي تواجه الفعل الدعوي الحديث، ووجب على القائمين به أن تكون نظرتهم إلى الحياة واقعية وعلمية، فلا يقدمون على خوض غمار الدعوة قبل أن يتسلحوا لها بما يؤهلهم لمواجهة التحديات المختلفة. ولا نبالغ إذا قلنا أن أقوى سلاح يتطلبه هذا العصر هو اعتماد المنهجية والتخطيط في كل شيء.

إن استعادة الفعل الدعوي لحيويته وفعاليته مرهون إلى حد كبير بالقيام بمراجعة شاملة لمقولات الدعوة الإسلامية، وآليات الإنجاز، ومحاولة التخلص من الأطر الجاهزة والأساليب البالية وتجديد الأسس النظرية، وتوفير شروط التأهيل المنهجي المطلوبة في ضوء المتغيرات الدولية ومستجدات العصر.

الفعل الدعوي الحديث وإشكالية القصور المنهجي:

شهد العالم الإسلامي في العصر الحديث ظهور حركات دعوية عديدة انبثقت من وجدان الأمة التي تكالبت عليها عوامل التأخر والانحطاط حتى كادت تأتي عليها. ومثلما توزعت هذه الحركات على مناطق جغرافية عديدة، فقد كانت أيضا ذات توجهات مختلفة، غير أنها تشترك جميعا في العمل المخلص الدؤوب لإحداث تغيير جذري في أوضاع الأمة، عن طريق اقتلاع

ما عشش في أعماقها من اعتقادات ضالة وسلوكيات فاسدة وتقاليد بالية وتصورات منحرفة، وابتعاد عن الأصول الحقيقية للإسلام، وفي الوقت ذاته تقريبها ما أمكن من الدين الصحيح الصافي من الشوائب، كما أنزله الله سبحانه وتعالى، وبلغه رسوله الكريم، وتمثله الجيل الأول من الصحابة الأبرار. وكان أمل أصحاب هذه الدعوات والعاملين معهم أن تتخلص الأمة الإسلامية من أدوائها وعللها، وتسترجع مكانتها في الوجود، وشهودها الحضاري باستمداد أسباب القوة والبقاء من دينها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولا نبالغ إذا قلنا أن الجهود الجبارة التي بذلت في هذا السبيل لا تقدر بثمن، وأن التضحيات الجسام التي قدمت على مختلف الأصعدة كانت كلها تصب في خدمة أهداف الدعوة الاستراتيجية.

وقد تمخضت هذه الحركات ـ مع مرور الزمن ـ عن تجارب مختلفة ومتنوعة في المناهج والبرامج والإنجازات. وباستقرائها يتبين للباحثين أن معظم هذه التجارب قد أخفقت في تحقيق أهدافها الكبرى، وأن مدها قد توقف قبل أن تبلغ غايتها، وأنها ظلت ـ في أغلب الأحيان ـ تراوح مكانها، ولم تستطع أن تحدث التغيير المطلوب الذي ينقل الأمة من حالة المغلوبية والاستلاب الحضاري، إلى حالة القوة والمنعة التي تمكنها من تجاوز انحطاطها الذاتي ومواجهة مضاعفات التبعية الثقيلة التي ورثتها عن عصور الضعف، الأمر الذي يطرح علامة استفهام كبرى، ويدفعنا إلى البحث عن الأسباب التي تكمن وراء عجز هذه التجارب الدعوية المختلفة عن تحقيق أهدافها على الرغم من طول المدة الزمنية التي استغرقتها، والتي تجاوزت قرنين ونصف اعتبارا من ظهور الحركة الوهابية بالحجاز منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، وعلى الرغم من قيامها على أيدي نخبة ممتازة من العلماء والدعاة والمفكرين الذين وهبوا للدعوة أعمارهم، وأفنوا سنين حياتهم في خدمتها، وجندوا لها ما أتيح لهم من الوسائل

والأساليب والإمكانات والرجال، مما ينم عن إخلاص عظيم، وطاقة جهادية فياضة، ومؤهلات قيادية متميزة.

إن هذا الزخم الدعوي الذي لم يتوقف منذ أن وعت الأمة ذاتها، وبدأت تتململ وتتحرك لتتخلص من أوضار عصور الجمود والتخلف كان ضخما بكل المقاييس: سواء في المساحات الواسعة التي شملها من أجزاء العالم الإسلامي، أوفي الطاقات التي وظفها، أوفي الإمكانات التي جندها، أوفي الوقت الذي استغرقه. فإذا قارناه بحركة النبي صلى الله عليه وسلم ــ باعتباره قدوتنا ومثلنا في الدعوة والتغيير ــ نجدها لم تتجاوز عقدين من الزمن إلا بسنوات قليلة، ومع ذلك فقد كانت إنجازاتها كبيرة، حيث تمكنت من تحقيق أهدافها الاستراتيجية [8]، ومن الوقوف على أرض صلبة أتاحت لها الانطلاق في جميع الاتجاهات بقوة عجيبة مع بقاء المركز نقطة جذب أساسية تستمد منها التوجيه والإرشاد.

فإذا تجاوزنا هذه المقارنة التي تظل ضرورية لكونها النموذج المثالي لكل الدعوات وعقدنا مقارنة ببعض المجتمعات التي انطلقت في بناء نهضتها معنا أو بعدنا بقليل، تصدمنا الحقيقة التي تؤكد أنّ هذه المجتمعات قد استطاعت ــ بنسبة نجاح عالية ــ أن تستغل عناصر الزمن والتراب والإنسان لتبني قدراتها الذاتية، وتفسح لنفسها مكانا بين القوى العالمية الفاعلة على الرغم من أنها لا تمتلك الرصيد التاريخي الغني الذي نملكه، ولا تحتكم إلى المرجعية الفكرية الهادية، هذا فضلا عن الخبرة الإسلامية التاريخية والثروة البشرية الهائلة، والطاقات المادية الضخمة[9].

---

[8] راجع: برغوث، الطيب. الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية. ص 63 وما بعدها.

[9] راجع: ضاهر، د.مسعود. النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ديسمبر. 1999

وقد استدعت هذه الإشكالية ــ التي فرضت نفسها على واقع العمل الدعوي ــ عكوف بعض المفكرين والعلماء[10] عليها للبحث في حيثياتها، واستقصاء أسبابها كمحاولة لنقد الذات ومراجعة المسار. وتبين أن تتبع مسار الفعل الدعوي الحديث وتسقط مواطن الإصابات ومكامن الخلل فيه يحيل إلى وجود مشكلات عديدة داخلية وخارجية تقف وراء ذلك لعل أهمها ــ في نظرنا ــ إشكالية القصور المنهجي التي عانى ومازال يعاني منها الفعل الدعوي الحديث.

وقد نبه بعض المفكرين إلى إشكالية القصور المنهجي التي يعاني منها الفعل الدعوي الحديث، والتي طفت على سطح الاهتمامات، واستحوذت على الدراسات والمناقشات كمظهر من مظاهر الإحساس العام بالأزمة التي لم تعد آثارها خافية على أحد بعد سلسلة الإصابات والإحباطات المتتالية التي لحقت بمسار الدعوة، واستحثت العقول للوقوف على مكامن الخلل، واكتشاف مواطن الداء في محاولة جادة لنقد الذات ومراجعة المسيرة.

ومنهم أحمد سلام الذي يؤكد أن من أعظم ما أصيب به المسلمون على مر تاريخهم "إضاعة الرؤية المنهجية للبناء الحضاري، مما أوقعهم في شباك الرؤية التجزيئية، وغموض معالم المنهج وتداخل أدواره، واشتباه الأسباب بالنتائج، وبالتالي ضياع الفعالية، واتساع دائرة الفكر الغيبي حتى غطت مساحة كبيرة من ساحة الفكر الحركي فامتنعت فيها الرؤية الواضحة"[11].

وهو يربط تصحيح مسار العمل الإسلامي بضرورة تحديد المنهج، والتعريف بسماته الرئيسية: "وذلك لضمان سلامة الحركة

---

[10] راجع مثلا: الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية: أوراق في النقد الذاتي. تحرير وتقديم عبد الله النفيسي. و: في النقد الذاتي لخالص جلبي. و: أين الخلل ؟ ليوسف القرضاوي. و: مجلة الأمة، ع 46، ع 49، ع 50، ع 51، ع 52، ع 53، ع 54،ع55، ع 56، ع 59، ع 60، ع 61، ع 67 ، سلسلة أين الخلل ؟.

[11] سلام، أحمد. ((الأبعاد المنهجية للعمل الإسلامي))، مجلة الأمة ، ع 67، مارس 1986. ص 26

وخطواتها: واجتناب آثار الاضطراب والغموض على التصور الصحيح للإسلام >> [12]، مدعما رأيه بأن الدعوة الإسلامية الأولى التي ظهرت وسط فوضى فكرية وخلقية طاغية واستطاعة في غضون سنوات قليلة: " أن تكنس مفاهيم الجاهلية، وتطهر الجزيرة من أخلاق الوثنية الدنسة، وتقيم دولة التوحيد"[13]، إنما استمدت قوتها وفعاليتها من: "المنهج الحضاري الذي تحركت الدعوة من خلاله، وعندما بدأت الأمة بالهبوط والانحدار نتيجة عزل هذا المنهج عن واقع الأمة في حركتها، لم تفلح المحاولات كلها في إرجاعها إلى المكانة التي فقدتها"[14]، مما يعني أن: "قوة المسلمين لا تكمن في ضخامة طاقاتهم المادية بقدر ما ترجع إلى المنهج الذي يتولى تربية هذه الطاقات ويهيئها للمشاركة في عملية البناء الحضاري"[15]، الأمر الذي تجلى بشكل قوي في سيرة الرسول صلى اله عليه وسلم، والتي تعد التطبيق المعصوم للمنهج المتضمن في ثنايا نصوص الوحي.

ويذهب عبد الحميد أبو سليمان إلى أن أزمة الأمة لا تكمن في الإمكانات والموارد، كما أنها ليست أزمة عقيدة وقيم ومبادئ وإنما هي أزمة فكر ومنهج جعلتها عاجزة عن مواكبة التطورات والتغيرات والتحديات الحضارية المتعاظمة والمتلاحقة، وأن هذه الأزمة لن تحل إلا: "بتصحيح مسار العقل وتصحيح منطلقات الفكر المسلم، وبناء منهجيته العلمية والاجتماعية لتؤهله للتعامل المنضبط مع الحياء الاجتماعية... لأنه إذا صح المنهج صح الفكر، وأمكنه أن يمد الأمة بالطاقة اللازمة لنشاطاتها وحاجاتها كافة على الوجه

---

[12] المرجع نفسه، ص 26

[13] المرجع نفسه، ص 26

[14] المرجع نفسه، ص 26

[15] المرجع نفسه، ص 28

الذي ترى فيه الإفادة منه في جهود البناء والإصلاح، والإعمار ومواجهة التحديات"[16].

أما الطيب برغوث فقد انطلق في بناء الخطر والحيوية التي يكتسبها القصور المنهجي من التساؤلات المشروعة التي تسكن ذاكرة الأمة وتؤرقها والتي تبحث بإلحاح عن السبب الذي يكمن وراء فشل جهود التجديد الحديثة في تحقيق النهوض الحضاري بالأمة على الرغم من طول المدى وضخامة المسعى وتوفر دواعي النهضة وأسباب نجاحها المادية والمعنوية، وعن التفسير المنطقي لاتسام هذه الجهود بالسلبية واللافعالية، وتميزها بالتنافر والتآكل.[17]

ويعقب على ذلك بأن العوامل الموضوعية التي أوصلت الفعل الدعوي إلى هذه الحالة عديدة بعضها داخلي والآخر خارجي، غير أنه يرى أن القصور المنهجي يبرز بقوة كأحد أهم وأخطر هذه الأسباب ويسوق أمثلة عن الحركات التجديدية التي تولت النهوض بالأمة مشيرا إلى مواطن القصور المنهجي في مشاريعها التغييرية المختلفة مؤكدا على أهمية (البعد المنهجي) في الفعل الحضاري باعتباره: "لب كل جهد تغييري وجوهره وأساسه، بدونه يتحول إلى أجزاء وتفاريق وفوضى لا معنى لها"[18]، وأن مسيرة الأمة الطويلة المليئة بالمآسي والجراح والإخفاقات بحاجة: "إلى المنهج أكثر من أي شيء آخر، لأننا به نولد المعرفة الصحيحة، وبه نفهم الواقع، وبه نمتلك القدرة على التأثير الفعال في مساره، ونحافظ على مكاسب عملنا"[19].

إن افتقار الفعل الدعوي الحديث إلى المنهج لإنجاز فعل سليم وصحيح، سواء في فقه الإطار المرجعي الموجه، أوفي فقه الواقع

---

[16] أبو سليمان، د. عبد الحميد أحمد. أزمة العقل المسلم. دار الهدى. عين مليلة. الجزائر , ط2. 1992. ص 65

[17] برغوث، الطيب. الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري وضرورة المنهج. ص 5

[18] المرجع نفسه، ص 9

[19] المرجع نفسه، ص 10

الإنساني، وتحديد العلاقة مع الآخر والاستفادة من الخبرة الإنسانية والكسب البشري، أوفي فقه الإنجاز، أوفي فقه المحافظة على المكاسب الدعوية وحمايتها من كل المخاطر، والوصول بذلك إلى فعل دعوي ناجح يجمع بين العلم والفن، ويتجاوز الهواية إلى الاحتراف، هو الذي جعله يعاني من أمراض كثيرة لعل من أهمها: طغيان الخطاب العاطفي وخفوت صوت العقل، والانشغال بالمظاهر والشكليات، وغلبة الارتجال والعفوية، وغياب المشاريع، وانتشار الغثائية والرداءة الفكرية، والانغلاق على الذات وتقديس التراث، والقصور في التعامل مع الآخر، واحتدام التفرق والتآكل والصدام، وغلبة التطرف وغياب الاعتدال، والصراع مع السلطة واختيار المواجهة، والغرور والمبالغة في الثقة بالنفس، وتكريس ظاهرة الاستئناف والبداية الصفرية، وغيرها من العلل التي أصابت الفعل الدعوي في عمقه، وجعلته عاجزا عن إحداث التغيير المنشود في واقع الأمة.

مظاهر القصور المنهجي في الفعل الدعوي الحديث

أولا: القصور في فقه الإطار المرجعي الموجه:

إن الخلل الذي يعاني منه الواقع الإسلامي ليس مرجعه افتقاد القيم، أو فقر في الميراث الثقافي، أو عجز وقصور في التجربة الحضارية التاريخية، لأن المسلمين: "ليسوا عالة على التاريخ، ولا متطفلين على الزمن، ولا واغلين على مائدة الحياة، وإن مكانهم من التاريخ ــ لو عرفوا ــ هو الصدر..."[20]، وإنما هو اختلال العلاقة مع الإطار المرجعي، وانقطاع الأسباب التي تربطه بهم حتى يحرك فيهم كوامن الإيمان الذي خمدت فاعليته وانطفأت شعلته.

[20] الإبراهيمي، محمد البشير. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ش.و.ن.ت. الجزائر. ط1. 1978. ج1. ص 218

وإعادة المسلمين إلى حظيرة الدين يكون بتصحيح هذه العلاقة مع الإطار المرجعي، والتي تتم عبر وسيلتين أساسيتين هما: فهم الدين وتنزيله على أرض الواقع. وتكمن أهمية فهم الدين في كونها المرحلة الأساسية والضرورية التي يجب أن تسبق كل محاولة لتنزيل الإسلام على أرض الواقع.

وقد نتج عن هذا الاختلال في العلاقة مع الإطار المرجعي قصور في التعامل معه، وهذا مظهر خطير من مظاهر القصور المنهجي لاتصاله بالإطار المرجعي الموجه مع ما له من الأهمية القصوى في صياغة الفعل الدعوي وتوجيهه وترشيده، ولكونه حجر الأساس في أي دعوة وقطب رحاها الذي تدور حوله الجهود وتلتقي عنده الأهداف. وكل بادرة تبنى على فهم سقيم أو قاصر له تكون نتيجتها لا محالة سقيمة وقاصرة أيضا: "فمن ساء تصوره لأمر ما، فالمتوقع أن يسوء سلوكه في شأنه، فإن السلوك أثر للتصور حسنا أوقبحا"[21].

وقد دلت التجارب والممارسات أن الفعل الدعوي الحديث يعاني من ثغرات وخروق كثيرة في هذا المجال، بدليل التصورات والسلوكيات التي تصدر عن العاملين في ميدان الدعوة، والتي تشير إلى أي مدى كان القصور في التعامل مع الإطار المرجعي الموجه ضارا ونتائجه وخيمة على جميع الأصعدة، الأمر الذي انعكس سلبا على سير الدعوة، وحرم الفعل الدعوي من الفعالية والتأثير.

والفعل الدعوي الحديث يعاني من إشكالية التعامل الإيجابي مع الإطار المرجعي الموجه بسبب تلك الفهوم الناقصة والقراءات القاصرة التي عجزت عن استلهام المقاصد العامة والحقائق الكبرى للإسلام، والتي ألحقت إصابات بالغة بالدعوة، وظهرت نتائجها بشكل واضح في عدة مظاهر نذكر منها:

---

[21] القرضاوي، يوسف. في فقه الأولويات. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط1. 2000 م.ص 227

1 ـ الخلط بين معارف الوحي ومدارك العقل:

بمعنى التداخل الخطير بين الدين من جهة والجهد البشري من جهة أخرى: حيث حصل التباس بين الإسلام الذي ينحصر في مصدريه المعصومين: الكتاب والسنة، وبين الجهود البشرية التي يبذلها العلماء والدعاة لتحديد مقاصد الشريعة وفهم أحكامها، واستنباط ما يحتاجه المسلمون من فتاوى في حياتهم اليومية، وتسطير منهج سير الدعوة وأساليب التعامل مع المجتمع. وقد أدى الخلط بينهما إلى إضفاء القداسة على اجتهادات البشر وإلحاقها بالإسلام كجزء حميم منه يلزم التقيد بها، بينما هي ـ في حقيقة أمرها ـ مواقف اجتهادية يطالها ما يطال كل شيء بشري من احتمالات القصور في الرؤية، والخطأ في إصابة الحق، والمحدودية في التصور، الأمر الذي حاصر الفعل الدعوي في هذه الحدود وعطله وشل حركته، ولم يدع له مجالا ليحتك احتكاكا مباشرا بالكتاب والسنة ليسترشد بهما في التعامل مع قضاياه الواقعية ومشاكله المطروحة على جميع المستويات، كما حرمه من طرح هذه الاجتهادات البشرية واستبدالها بما يتيح له انطلاقة جديدة وقوية تعطي دفعا هاما لمسيرة الدعوة.

إن عجز القائمين على الفعل الدعوي عن الفصل الواضح بين الثوابت التي تتمثل في محكمات وقطعيات العقيدة والشريعة والأخلاق التي تكون الإطار المرجعي وتمثل: "مركز الرؤية، ومؤشر الهداية للعقل، وتحقق له الإجابات الأساسية التي يعجز بطبيعة تكوينه عن الوصول إليها"[22]، وبين المتغيرات التي تحكمها سنة التطور والاختلاف والنقصان هو الذي كرس هذا التداخل،وهو الذي جعلهم يغفلون القاعدة الثابتة التي نؤكد أن كل فكر بشري محكوم بزمانه ومكانه، ولابد أن يأتي يوم على هذا الفكر يجد فيه نفسه عاجزا عن التجاوب مع الظروف المستجدة، وغير قادر على تقديم أجوبة مناسبة لها، لأن: "بصيرة المفكر الإسلامي ـ مهما

[22] حسنة، عمر عبيد. الشاكلة الثقافية. المكتب الإسلامي. بيروت. ط1. 1993. ص 52

كانت مجلوة نافذة ومهما امتدت في المستقبل في حياته أو بعد مماته ـ فإنها محكومة بقدرات الإنسان المحدودة في رؤية البعد الزمني"[23].

2 ـ الخلط بين الإخلاص والصواب:

وهي ثغرة دقيقة تسربت منها السلبيات والأخطاء حينما أغفلها كثير من العاملين في حقل الدعوة ولم ينتبهوا إلى خطورتها فكانت آثارها على الفعل الدعوي وخيمة. كما أنها مظهر هام من مظاهر القصور في فهم الإطار المرجعي الموجه الذي بين للمسلمين في آياته المنزلة وفي سيرة نبيه المطهرة أن هناك فرقا واضحا بين الإخلاص العميق للإسلام والولاء التام لله ورسوله، وبين صواب العمل أو خطئه. فصلاح النية لا يشفع لفساد العمل ولا يغير أثره، ولا يصح أن يكون مبررا للتغاضي عن الفساد الناتج عنه[24]، لأن الدين الخالد جاء ليكون منهجا قويما للحياة، ومن أبرز معالم هذا المنهج وخصائصه أنه يتناغم مع سنن الله الكونية والشرعية، والأخطاء الناجمة عن المخلصين أصحاب النيات الطيبة ستصطدم حتما بهذه السنن التي تجاهلتها أثناء أداء أعمالها والتي لم تجن من ورائها سوى الفشل كعقاب على الخطإ الذي ارتكبته.

فكثير من الإخفاقات التي مني بها الفعل الدعوي الحديث لم تأت من نقص في الإخلاص وصدق النية، إذ أن ساحة الدعوة تموج بالمتحمسين، وتطفح بالمخلصين الراغبين في التضحية، وإنما جاءت من نقص في العلم، وقلة في المعرفة، وقصور في فهم سنن الله في الأنفس والمجتمعات[25]، وهو العلم الذي يجعل العمل صائبا،

---

[23] الكتاني، محمد إبراهيم وآخرون. تجديد الفكر الإسلامي. مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط1. 1989. ص 18

[24] سلام، أحمد. ((الأبعاد المنهجية للعمل الإسلامي)). الأمة، ع 67، مارس 1986. ص 27، 28

[25] يتيم، محمد. العمل الإسلامي والاختيار الحضاري. دار قرطبة. الدار البيضاء. المغرب. ط1. 1989 . ص 18، 20

ويحتاج تحصيله إلى جهد ووقت وتراكم طويل في الخبرة ويستند في أساسه إلى فقه عميق للإطار المرجعي حتى لا يقع المؤمن في مغبة الخلط بين الإخلاص كنية يثاب عليها في الآخرة [26]، وبين الصواب الذي يجازى عليه إن أساء تقديره بتعثر أعماله وإخفاقه في إصابة الهدف والوصول إلى غايته.

وقد نبه القرآن المؤمنين إلى هذا الأمر الخطير، وأعطاهم فيه درسا بليغا حينما هزموا في معركة أحد، وظنوا أنهم يستحقون النصر لأنهم العصبة المؤمنة التي تحمل دين الله وتنافح عنه بالأموال والأنفس ضد الشرك والكفر، فبين لهم أن إخلاصهم ليس مبررا كافيا لارتكاب الأخطاء وتجاهل طبيعة الحياة التي تجري على سنن ثابتة، لذلك حملهم مسؤولية ما جرى ليتعلموا بعد ذلك التفريق بين الإخلاص والصواب فقال تعالى: ((أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم))[27]، لذلك قال الحسن البصري: ((العامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح))[28]، فإذا كان الإخلاص شرطا أساسيا للثواب والقبول، فإن الصواب شرط أساسي للنجاح[29] وتحقيق الأهداف، ويتوجب على الدعاة أن يتجاوزوا هذه الثغرة بإرداف الإخلاص بالصواب لتستقيم أعمالهم وتنسجم النوايا مع صحة المسعى.

3 ـ القراءة الجزئية للإطار المرجعي الموجه:

والتي تتعامل مع مقولات الوحي كأجزاء مستقلة، وتنظر إلى كل قضية نظرة منفصلة عن باقي القضايا، متجاهلة بذلك العلاقات المتينة التي تربط بين أجزاء المنهج الإلهي الذي تكمن معالمه الكبرى في القرآن والسنة الصحيحة.

وقد حرمت القراءة الجزئية الفعل الدعوي من الاستفادة من الفقه المقاصدي الذي يكتشفه الإنسان كلما تعامل مع الإطار

---

[26] المرجع نفسه، ص 28

[27] آل عمران، 165

[28] يتيم، محمد. العمل الإسلامي والاختيار الحضاري. ص 19

[29] بكار، د. عبد الكريم. مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي. ص 120

المرجعي بنظرة شمولية تستوعب جميع مقولاته.كما حرمته أيضا من حيوية الإسلام ومرونته التي تجعله قابلا للتنزيل في مختلف الظروف والبيئات، والاستجابة لجميع المستجدات والتكيف معها وحاصرته في زاوية ضيقة قلصت إمكاناته وشوهت مساره، وضيقت عليه سبل الحوار، وأرهقت طاقاته في الجزئيات التي تحتمل الخلاف، وشغلته عن الكليات التي ينتظم بها سير الدعوة، وتبنى على أساسها إنجازاتها.

4 ــ القراءة الحرفية للإطار المرجعي الموجه:

وذلك بالنزوع إلى التفسير الحرفي لأوامر ونواهي الإطار المرجعي الموجه، والابتعاد عن كل محاولات الغوص في أعماقها لاستكناه أسرارها والانشغال بالمظاهر والشكليات، وحرمان العقل من البحث في علل الأحكام ومقاصد الشريعة باعتبارها المحور الأساس الذي يقود إلى المنهج الرباني الشامل المتكامل الذي يمارس الإنسان في إطاره وظيفته الاستخلافية بدعوى التأسي والاقتداء بالسلف.

إن إقصاء العقل من إعمال النظر في الإطار المرجعي بتقييده بالقراءة الحرفية والتفسير الظاهري يؤدي إلى تكوين صورة ضبابية عن حقيقة القيم التي يحملها، ويضرب ــ بالتالي ــ حصارا على العقول والطاقات التي ينبغي أن تتفاعل معه لتدفع الواقع نحو وضع بديل يتناسب مع خاتميتها وعظمتها، وتفتح السبيل ــ في المقابل ــ للبساطة والسذاجة التي تكرس الغثائية والرداءة باعتبارهما إفرازا طبيعيا لغياب الرؤية العميقة والبصيرة النافذة.

5 ــ التركيز على سنة الابتلاء:

والتي تتجلى كأوضح ما تكون عقب الفشل الذي يلحق بالعمل الدعوي، حيث نجد تفسير هذا الفشل جاهزا عندما يعلق على مشجب البلاء الذي أراده الله امتحانا لعباده وتمحيصا للعاملين في سبيله، دون أن يكون هناك بحث واستقصاء في المقدمات والأسباب ومنهج العمل ووسائله وآلياته، وما اعترضه من عوائق وتحديات،

ومدى نجاعة الطرق المستعملة، مما يكرس الأخطاء والأمراض الداخلية ويجعلها تتراكم بسبب تنزيه الذات وتزكيتها.

لقد شاعت في أوساط العاملين في حقل الدعوة فكرة المحنة والابتلاء التي أفرزها القصور في فهم الإطار المرجعي الذي يرشدنا استقراؤه والتعمق في فهم مسيرة الأنبياء والصالحين إلى وجوب التمييز بين المحن التي لابد أن تواجه كل دعوة إصلاحية، وبين الإصابات التي تلحقنا كنتيجة حتمية لأخطائنا، وضرورة التفريق بين الآلام التي تتسبب فيها عقبات الطريق الطبيعية، وبين الخسائر التي تترتب عن مبادرات ارتجالية غير محسوبة العواقب: "فالقرآن الذي يؤكد على سنة ابتلاء الله لعباده المؤمنين ((لتبلون في أموالكم وأنفسكم))[30] يؤكد أيضا على أن الفشل والفساد من صنع الناس ((ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون))[31]"[32]. وهذا القصور لا يعالجه الصبر الطويل بقدر ما يقومه فقه الإطار المرجعي الذي يضيء سبيل تدارك الأخطاء وتجاوزها: "إن لزوم الصبر دون مراجعة للأخطاء قد يجعل المصابرة نوعا من التغطية على النتائج السيئة واحتمال العناء دون مبرر"[33].

ثانيا: القصور في فقه الواقع:

وفي هذا الجانب الحيوي أيضا يعاني الفعل الدعوي الحديث من القصور، ويشكو من إهمال التعرف على الواقع وتنظيم التعامل معه، ويبدو ذلك جليا في كثير من الممارسات وأنواع الخطاب التي تصدر عن العاملين في حقل الدعوة والتي تفضح بشكل علني محدودية فهمهم للإسلام ولتعقيدات الواقع المحلي والدولي الراهن.

---

[30] آل عمران، 86

[31] الروم، 41

[32] لحام، حنان. ((السنن في القرآن)). مجلة الأمة. ع 59. ذو القعدة 1405 هـ. ص 11

[33] بكار، د. عبد الكريم. مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي. دار القلم. دمشق. ط1. 1999. ص 139

وتتجلى مظاهر هذا القصور في الفقر الفكري المدقع الذي يغلب على العمل الدعوي فيما يتعلق بثقافة العصر وما يدور فيه من الأفكار والنظريات والاتجاهات، ومدى نفوذها وعمق تأثيرها في تشكيل الواقع الذي نعيشه نحن ويعيشه الآخرون، ومسئوليته الكبيرة في صياغة العقليات والتحكم في ردود الأفعال وتوجيه الآراء، وقد ظهرت بوادر هذا التخلف عن التعرف على الاتجاهات والنظريات الكبرى السائدة في عصرنا في فشل التنظير للواقع الإسلامي والعجز عن لملمة أطرافه وتكوين صورة صادقة عنه.

ويندرج في هذا السياق أيضا ما يمارسه القائمون على الفعل الدعوي الحديث من حرص عل التميز عن المجتمع مما ترتب عنه انفصال عن الواقع بتعقيداته وابتعادا عن هموم الناس ومشاغلهم اليومية، وحدوث فجوة بينهما أبعدت الجماهير عن مسار الدعوة وأغرقت الدعاة في الماضي الذي انغمسوا فيه فابتلعهم وراحوا يبحثون في ثناياه عن إجابات لتساؤلات الواقع، وظلت تستهويهم المثل وتأسرهم النماذج المشرقة التي أوجدها غيرهم وأجابوا بها عن تحديات عصرهم، ولم يدركوا أن الهروب من هذا الواقع المتلاطم بالتحديات والأحداث والانغلاق على الذات سيفصلهم شعوريا واجتماعيا عن بيئتهم، ويظل تأثيرهم يتضاءل رويدا رويدا حتى ينعدم[34] لأن الهروب من الواقع يجعل الإنسان عاجزا عن استشراف المستقبل فيضيع بين اجترار الماضي ووهن الحاضر[35].

وهذا القصور في استيعاب الواقع وإدراك أبعاده والإحاطة بما يموج فيه من أحداث وما يصطرع فيه من قوى هو الذي أوهم كثيرا من المهتمين بالدعوة أنهم الوحيدون في العالم الذين يبشرون بمنظومة فكرية معينة، وأن على العالم أن يستمع إليهم ويقتنع بما

---

[34] برغوث، الطيب. التغيير الإسلامي. ص 94

[35] أحمد، زكي، تحولات الفكر والثقافة في الحركة الإسلامية.دار البيان العربي. بيروت. ط1. 1992. ص 45

يقولون ويتبعهم لأنهم يحملون الحق: "وهذه تصورات في حاجة إلى مراجعة، فالحركة لا تتحرك في فراغ، بل في عالم مكتنز ومزدحم ــ وربما أكثر من اللازم أو أكثر من طاقته الاستيعابية ــ بالأفكار والقيم ومشاريع الخلاص الروحي والمادي والوطني"[36]، وكلها تحتكم على أجهزة دقيقة ومتطورة تزودها بما تحتاج إليه من المعلومات العلمية التي تستقطب بها الأنصار وتجذب إليها المؤيدين الذين تفننت في إقناعهم بصواب مسلكها ومصداقية ما تدعو إليه بعد أن استوفت البحث في مكونات واقعهم، ووقفت على العوامل المختلفة المؤثرة في سلوكهم وآرائهم وردود أفعالهم.

والقصور في فهم الواقع أيضا هو الذي غلب هاجس نظرية المؤامرة التي تعزو كل عجز في التخطيط وفشل في تحقيق النتائج وتراجع في العمل الدعوي إلى القوى الخارجية المتآمرة التي تتربص بالإسلام وأهله، وتهول من أمرها وتعظم من شأنها دون أن تبذل جهدا منهجيا ومنظما في التعرف إلى هذه القوى وتحديد هويتها وتوضيح معالمها والبحث في مصادرها ومحاولة اكتشاف أساليب تأثيرها مما يعد خطوة هامة وأساسية في إلقاء الضوء على مسرح الأحداث، ووضعه في حجمه الحقيقي إلى أن يتسنى إيجاد وسائل المواجهة المناسبة: "فكل مشكلة تشخص تشخيصا صحيحا هي مشكلة محلولة جزئيا"[37]، بمعنى أن: "الخطة الناجحة لا تكون إلا بنتا للمعلومة الجيدة"[38].

ولا يمكننا في هذه العجالة إحصاء جميع مظاهر القصور المنهجي في فقه الواقع، وإن كانت بادية للعيان، وانعكاساتها على الفعل الدعوي الحديث واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، يشجعها ويكرسها الانحياز القوي لأحادية الثقافة، والانعزال

---

[36] مجموعة من الباحثين، الجركة الإسلامية: رؤية مستقبلية، أوراق في النقد الذاتي. تحرير وتقديم: عبد الله النفيسي. مكتبة مدبولي. القاهرة. ط1 . 1989. ص 16 ــ 17

[37] بكار، د. عبد الكريم. مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي. ص 261

[38] بكار، د. عبد الكريم. من أجل انطلاقة حضارية شاملة. دار القلم. دمشق. ط1. 1999. ص 28

المعرفي الذي لا يفرق بين الانفتاح الثقافي والتبادل الواعي والمتكافئ للمعارف والخبرات وبين الغزو الثقافي[39]، ويعمق تأثيراتها السلبية غلبة الثقافة التراثية على الثقافة المعاصرة التي تصنع الحدث وتتحكم في مسار الواقع الذي أصبح يشكل المسلمين وفق ما أراد بدل أن يفقهوه هم ويساهموا في تشكيله

ثالثا: القصور في فقه الإنجاز:

والذي يتجلى في غلبة البدائية والعفوية والسلبية والبساطة على الفعل الدعوي الحديث مما وسمه بالضعف واللافعالية وجعله عاجزا عن القيام بالتأثير المطلوب الذي يتمثل بشكل أساسي في إحداث الإخصاب بين فقه الشرع وفقه الواقع، أي تحريك الواقع ودفعه للاقتراب أو التطابق من مبادئ الإطار المرجعي، أو بعبارة أخرى هو محاولة منهجية للتقريب بين الإسلام الاجتماعي الذي يمارسه المسلمون في غياب الرؤية الصحيحة، والوعي التام بحقيقة الدين، وبين الإسلام المعياري[40] الذي يمثل مبادئ الكتاب السنة وقواعدهما، ويكون ذلك بمباشرة عملية تصحيحية على مستوى الإسلام الاجتماعي ليقترب أو يتطابق مع الإسلام المعياري.

وفقه الإنجاز ــ يتوقف إلى حد كبير ــ على فقه الإطار المرجعي وفقه الواقع، لذلك فإن كل خلل يصيب هذا وذاك لا بد أن تكون له نتائجه السلبية على فقه الإنجاز باعتباره تطبيقا عمليا لما تم استيعابه في المرحلتين السابقتين.

ومن أبرز تجليات ضعف الأداء الإنجازي وسلبياته ما يلي:

1 ــ الجهل بالثقافة السننية:

وذلك بإهمال القوانين التي تحكم حركة المجتمع، والتعامل مع الواقع وكأنه يسير في فوضى وعبثية، وإغفال تام للأسباب، وعجز عن ربط النتائج بالمقدمات، على الرغم من أن القرآن الكريم قد أسهب في ذكر هذه السنن وركز في مواضع كثيرة على اطرادها وثباتها، ودفع المسلمين دفعا إلى

---

[39] حسنة، عمر عبيد. مراجعات في الفكر والدعوة والحركة. المكتب الإسلامي. دمشق. ط3. 1998. ص 140

[40] كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. أيام دراسية: رجب 1404 هـ، أفريل 1983 م. ص 21

معرفتها ودراسة آثارها في الفرد والمجتمع والدول حتى ينمولديهم حسن دقيق بأن الكون كله ـ يستوي في ذلك عالمه الطبيعي والإنساني ـ خاضع في حركته الدائمة لنظام معين وأنه ليس وليد الصدفة العمياء.

إلا أن الثقافة الإسلامية الضحلة التي اكتسبها كثير من القائمين على الفعل الدعوي الحديث قد حرمتهم من إدراك الأبعاد التي تكتسيها هذه السنن وأهميتها الكبيرة في وضع حركة الدعوة في مسارها الصحيح، ودفعتهم نحواقتحام ميدانها دون سلاح، الأمر الذي أفرز فعلا دعويا مفككا يفتقر إلى كثير من المقومات التي تضمن له النجاح.

ومن جملة هذه السنن التي لا تجد لها مكانا في الفعل الدعوي الحديث سنة التدرج والمرحلية. حيث أن التزامها في تغيير مجتمع ما من وضع سيئ إلى وضع أفضل شرط ضروري لنجاح الفعل الدعوي، وإن الاستعجال في تسوية الأوضاع الشاذة التي يعاني منها المجتمع ستقود حتما إلى الخيبة والخسران.

وقد أثبتت الخبرة الإنسانية أن التدرج سنة فطرية لأن النفس البشرية بطبيعتها نزاعة إلى التمسك بموروثها، وكثيرا ما تستعصي على محاولات التغيير، فكان التدرج في إلقاء التوجيهات، وإحلال المفاهيم البديلة محل المفاهيم القديمة وتغيير الأفكار والعادات أمر تقتضيه سنن الفطرة التي تؤكد أن النفس الإنسانية لا يمكن تحويل وجهتها من النقيض إلى النقيض طفرة واحدة.

وقد واجه الدعاة ـ في العصر الحديث ـ مجتمعات استغرق انسلاخها من التصورات العقدية الصحيحة والأحكام الشرعية والفضائل الإسلامية زمنا يمتد إلى قرون عديدة،وتربت أجيال منها في ظل الأفكار المادية والعلمانية، فكان من الضروري اعتماد سنة التدرج في علاج هذا الواقع المتردي وأخذ النفوس بالحكمة والسير بها خطوة خطوة حتى يتحقق المطلوب، والاستهداء بالإرشاد القرآني والتأسي بالسيرة النبوية في عدم خلط المراحل وعدم الاستعجال في قطف الثمرات، لكن الواقع يشهد بغير ذلك، حيث اصطبغ الفعل الدعوي الحديث بالانفعال وغلب على أصحابه العجلة وحرق المراحل، فهم يريدون أن يزرعوا اليوم ليحصدوا غدا، ويريدون أن يغرسوا في الصباح ليجنوا في المساء: "وهذا مخالف لسنن الله تعالى في الكون وفي الاجتماع البشري، فكل شيء له أجله المسمى وأطواره المعلومة... إن الاستعجال جعل الحركة الإسلامية تخوض معارك قبل أوانها، وتخوض أخرى أكبر من طاقتها، وتحارب الشرق والغرب مرة واحدة، وتدخل نفسها مداخل لا تستطيع الخروج منها، مع أن الله لم يكلفنا إلا

وسعنا، ولا يحل لنا أن نكلف أنفسنا من البلاء ما لا نطيق، فنعرضها للفتنة"[41].

2 ـ الخلل في فقه الأولويات:

يعد فقه الأولويات ركنا هاما من أركان الدعوة، وشرطا لازما من شروط نجاحها، وهو يعاني من الاختلال في أوساط العاملين في حقل الدعوة لفقدان الفقه الرشيد والعلم الصحيح، إذ به يعلم راجح الأعمال من مرجوحها وفاضلها من مفضولها، وصحيحها من فاسدها ومسنونها من مبتدعها[42]، وقد أشار الإبراهيمي إلى هذا الفقه إشارة بليغة وربطه ربطا وثيقا بالسيرة النبوية الشريفة التي تعد النموذج المحتذى لدى كل الدعاة وعلى مر العصور حينما قال: "وإن لنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان يسكت عن أهون الشرين إلى حين لخفة ضرره، أو عن أعظم الشرين إلى حين ليرصد له القوى ويستجمع الوسائل، وكلاهما ستر، وكلاهما باطل من يوم جاء الحق، ويا ليت قومنا يعلمون السر في مناجزته للشرك وإرجائه للخمر، أوفي تقديمه للتبني وتأخيره للاسترقاق"[43]. وصور الشيخ محمد الغزالي ما آل إليه فقه الأولويات على يد أناس ينتمون إلى الإسلام ولكنهم يفقدون الفقه الصحيح حينما قرر أنهم قلبوا شجرة الإسلام، فجعلوا جذوعها الأصلية فروعا خفيفة وجعلوا فروعها أوراقا تعبث بها الرياح، في حين جعلوا الأوراق هي الجذوع التي ينبغي أن يتوجه إليها كل الفكر، وكل الاهتمام وكل العمل[44].

بينما يؤكد محسن عبد الحميد أن العمل الدعوي في العصر الحديث كان يفتقر منذ بداياته الأولى إلى فقه الأولويات، وأن استمراريته على هذا النهج الخاطئ لعقود عديدة هو الذي عمق القصور المنهجي وضاعف من سلبياته: "فالعمل الإسلامي في هذا العصر لم تكن له أولويات من أول ظهوره، فهو يريد طرد المستعمرين، ومقاومة الحكام العلمانيين، والوقوف أمام الفساد الاجتماعي والظلم الاقتصادي، وتطبيق شرائع الإسلام بكل

---

[41] القرضاوي، د. يوسف. ((وقفة مع الحركة الإسلامية)). الأمة. ع56. أفريل 1985. ص 10

[42] القرضاوي، د. يوسف. في فقه الأولويات. ص 17

[43] الإبراهيمي، محمد البشير. عيون البصائر. ش. و. ن. ت. الجزائر. ص 164، 165

[44] الغزالي، محمد. الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر.

أبعادها في الوقت نفسه، في مجتمع ابتعد فيه كل شيء عن الإسلام فردا وأسرة وجماعة"[45].

إن تجاهل فقه الأولويات وتجاوزه جعل الفعل الدعوي الحديث يتحرك في مساحات عريضة أكبر من طاقته، ويقاوم على جبهات متعددة أوسع مما تستوعبه قدرات القائمين عليه، مما أحدث ثغرات في بناء الدعوة الداخلي أغرى الأعداء بالتسلل منها لضربها في الصميم، وبعثر الجهود وأضاع المكتسبات وجعل الفعل الدعوي يراوح مكانه، لأنه لا يمتلك رؤية منهجية واضحة تحدد البداية وترتب الأولويات وترسم الأهداف وتضبط المراحل.

ويرى أحد المفكرين المسلمين أن افتقاد ميزان الأولويات كان ثمرة للجهل بالواقع الذي يتوجه إليه الفعل الدعوي والذي يميزه أمران جوهريان نبه إليهما الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه وكان ينبغي للعاملين في ميدان الدعوة الالتفات إليهما لترشيد حركتهم وتوجيهها، أولهما أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وثانيهما أن عرى الإسلام ستنقض عروة عروة أولها الحكم وآخرها الصلاة، وهو يرى في هذين الحديثين دستور عمل لمن أراد أن يسير بالعمل الدعوي في خط صحيح، فالأول يرشد إلى أن الغريب الذي يريد أن يقيم بناء الدعوة في وسط لا يتجاوب معه ولا يشاركه أفكاره واهتماماته يجب أن يبدأ من الأساس، فيضع اللبنات التحتية ثم يرتفع شيئا فشيئا ولا يبدأ من فوق، والثاني يوضح أن هذه العرى التي انتقضت يجب أن يعاد إصلاحها وتوثيقها ببعضها البعض بداية من آخر عروة انتقضت وهي الصلاة صعودا حتى الوصول إلى عروة الحكم وليس العكس: "ذلك لأن أولئك الغرباء الذين وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم يصلحون ما أفسده الناس لا بد لهم أن يبدؤوا من النهاية. لأنهم لو بدؤوا من البداية أي من إصلاح الحكم لوجدوا أنفسهم أمام خندق عميق يحول دون الوصول إليه: وهو الفراغ الإسلامي الكبير الذي يستند إليه ذلك الحكم...ولو كانوا قد بدؤوا بالعمل بنهاية الحديث وهو الاهتمام أولا بعروة الصلاة وما جاورها من العرى، ثم توثيقها واحدة واحدة صلحت الحال بعد ذلك لأن توثيق تلك العرى وهي مئات ــ كل مجموعة في دائرة معينة ــ كان ينتهي إلى إرجاع القاعدة الجماهيرية العريضة إلى حظيرة الإسلام"[46].

---

[45] عبد الجميد، د. محسن. ((حول العمل الإسلامي: مراجعة وتقويم)). الأمة. ع 49. أكتوبر 1984. ص 10

[46] المرجع نفسه، ص 13

وقد كانت قضية التوجه بالفعل الدعوي نحو السلطة وإهمال المجتمع مثار مناقشات شغلت جملة من المفكرين المسلمين الذين رأوا فيها انحرافا منهجيا وخطرا يتربص بمستقبل هذا الفعل الذي يستمد شرعيته من القاعدة الجماهيرية الواسعة التي تشكل نسيج المجتمع وعمقه الحقيقي ومناط التغيير الذي أمر به الله تعالى.

3 ــ ضعف التخطيط والبرمجة:

وغلبة العفوية والارتجال على الفعل الدعوي الحديث، والافتقار الشديد إلى الدراسات المتخصصة، وغياب المشاريع والخطط، وإغفال الدور الحيوي الذي يلعبه التنظيم وضبط المسار وتحديد الرؤية والمنهج في الوصول إلى الأهداف وتحقيق الغايات في عالم يعيش أرقى درجات التنظيم والتعقيد والدقة، ويبني سياساته الاقتصادية والاجتماعية على نتائج البحوث والإحصاءات التي تعدها مراكزه المتخصصة في رصد التغيرات وتحليلها ثم رسم الاستراتيجيات.

فالغالب على العاملين في الحقل الدعوي اقتحام ميدانه بالخطب الحماسية، والشعارات والمواعظ، والاعتماد على العموميات والاكتفاء بالنية الطيبة في تسيير شؤون هذا الأمر العظيم الذي يرمي إلى تهيئة الأمة لاستعادة ريادتها العالمية وممارسة دورها في الشهود الحضاري، والإعراض عن السبل المنهجية التي تكفل له إدراكا شاملا لحركة المجتمع مما يسهل عليه مهمة تحديد المراحل التي يتعين عليه الالتزام بها في ضوء تغيرات الحياة ومستجدات العصر ومشاكل المجتمع وهمومه المتنوعة، وهذا لا يتم إلا بالاهتمام بالدراسة والتخطيط التي يتم في إطارها وضع البرامج ورسم الأهداف المرحلية والاستراتيجية، وتحديد وسائل العمل وأساليبه.

والذين يستهينون بالدراسة والتخطيط ينساقون وراء عواطفهم الجياشة وانفعالاتهم التي تطغى على منطق العقل، ويرون أن دعوة الله لا تخضع للقانون الذي يحكم سائر مناهج التغيير، ويبنون فلسفتهم على هذا الأساس الخاطئ، ويتعجبون ممن ينادي

بضرورة التخطيط القائم على الإحصاء ودراسة الواقع، ويحبذون العمل التلقائي المتحرر من كل القيود دون مراعاة لمنطلقاته ومساره ونتائجه معللين هذا التوجه بأن المطلوب هو أداء الأعمال حتى لو اعتراها النقص والخطأ، وسيأتي بعدهم من يكمل النقائص ويصحح الأخطاء، لكن الذي أكدته التجارب أن ترقيع العمل المغلوط أو تقويم المشروع الأعوج أصعب بكثير من بدئه من الألف بداية صحيحة[47]. والقاعدة التي تتفق عليها الدراسات الإنسانية والاجتماعية تقرر أن: "كل تغيير حضاري يريد أن ينقل المجتمعات من حال إلى حال، لا بد له من وضوح رؤية ومنهج متكامل يستنبط من أوضاع الحياة الاجتماعية، ويخطط لكيفية البدء، ويرتب الأولويات بصرامة ومن خلال حسابات دقيقة جدا"[48]، والإسلام ليس بدعا في هذا لأنه: "بجوهره وملامحه ولا سيما في أحوال سقوط مجتمعاته بحاجة إلى ذلك أكثر من أي منهج تغييري آخر لكثرة العقبات والأعداء"[49]، ولأنه الدين الذي أراده الله أن يتحقق على الأرض بجهد البشر لا بطريقة سحرية غامضة وعجيبة.

إن هذه المظاهر التي بيناها تكشف لنا عن خطورة القصور المنهجي الذي يعاني منه الفعل الدعوي الحديث وتبين لنا من جهة ثانية عمق المشكلة، مما يستدعي ضرورة القيام بمراجعة شاملة للمسر الدعوي ، ومحاولة الوصول إلى الأسباب والعوامل التي تقف وراء هذه الإصابات.

أسباب القصور المنهجي:

وأمام هذه الإشكالية التي يعاني منها الفعل الدعوي الحديث، والتي كلفته خسائر كبيرة في الأوقات والجهود، يتساءل الباحث عن الأسباب التي تقف وراء هذا القصور والخلل فيجد أن من أهمها:

---

[47] القرضاوي، د. يوسف. مرجع سابق. الأمة، ع 56، ص 9

[48] عبد الحميد، د. محسن. مرجع سابق. الأمة. ع 49. ص 10

[49] المرجع نفسه، ص 10

1 ــ طغيان الخطاب العاطفي وخفوت صوت العقل:

بحيث تغلب العواطف والانفعالات على التفكير المرتب السليم، والسلوك الهادئ المتروي.فهي التي توجه الفعل الدعوي، وتتحكم في أقوال الدعاة وأعمالهم، وسبل تسيير هيئاتهم، ومن هذا المسلك العاطفي الذي لا يعطي فرصة للعقل نبعت سلبيات كثيرة، منها الإعراض عن الدراسة والتخطيط وبناء الأعمال على الاندفاع والحماس دون مراعاة لعواقبه أو نظر في مآلاته، ومنها القفز فوق المراحل واستعجال النتائج وتجاهل سنن الله في التدرج والتوهم أن نصرة الحق لا تلزم الداعي بما تلزم به سائر البشر من الخضوع لقانون الحياة الذي يفرضه نظام الكون على الناس جميعا، ومنها المبالغة في انتقاد الآخرين من زاوية ضيقة ونظرة سطحية تفرزها العاطفة الجياشة والنزوة العابرة، مما يوقع في المبالغات المهولة ويغطي على الجانب العقلي الذي يزن الأمور بمصادرها ونتائجها ويعرضها عرضا نزيها على الإطار المرجعي الذي يحكم فيها بما يوافق المنطق فيقبل الجيد ويستبعد الردئ عن بصيرة.

2 ــ ضعف المراجعة والتقويم والنقد الذاتي:

حيث يغلب على العاملين في ميدان الدعوة التهيب من النقد والمراجعة والإصرار على عدم التوقف لإلقاء نظرة فاحصة للوراء وتقييم المسيرة في سبيل تحديد مواطن النجاح ومكامن الفشل والسقوط. فكثير من هؤلاء يبالغون في الثقة بالنفس، ويعدون أعمالهم معصومة، ويرون أن ما قدموه للإسلام كله حق وصواب، وأن ما أصاب الدعوة من تعثر وتراجع ليس سوى محن وابتلاءات يختبر بها الله عباده، ويرفضون بشدة الاعتراف بأنها وليدة الخطأ في اختيار الوسائل والأساليب وسبل التنفيذ.

خاتمة:

وبعد، فهذه محاولة لرصد وتحليل إشكالية القصور المنهجي في الفعل الدعوي الحديث، اجتهدنا من خلالها للكشف عن أهم

مواطن الخلل والإصابات التي لحقت به وجعلته عاجزا عن إحداث التغيير المنشود، كما أومأنا إلى بعض الأسباب التي كرست هذا القصور وشجعت على استمراره، إسهاما منا في الإشارة إلى مكمن العلة ومحل الداء كمقدمة ضرورية لوصف العلاج ومباشرة التصحيح الذي يعقبه استئناف صائب لمسيرة الفعل الدعوي الحديث، ومن ثم أمل كبير في مستقبل واعد له.

قائمة المصادر والمراجع

ـ الإبراهيمي، محمد البشير

1 ـ آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ش.و.ن.ت.الجزائر.ط1. 1978.ج1

2 ـ عيون البصائر.ش.و.ن.ت. الجزائر

ـ أحمد الميلاد، زكي

3 ـ تحولات الفكر والثقافة في الحركة الإسلامية. دار البيان العربي. بيروت. ط1. 1992

ـ ابن باديس، عبد الحميد

4 ـ تفسير ابن باديس. دار الفكر. دمشق. ط3. 1979

ـ برغوث، الطيب

5 ـ الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري وضرورة المنهج. دار الينابيع للنشر والإعلام. الجزائر. ط1. 1993

6 ـ الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية. مخطوط

7 ـ التغيير الإسلامي خصائصه وضوابطه.مكتبة رحاب. الجزائر

ـ بكار، د. عبد الكريم

8 ـ مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي. دار القلم. دمشق.ط1. 1999

9 ـ من أجل انطلاقة حضارية شاملة. دار القلم. دمشق. ط1. 1999

ـ جلبي، خالص

10 ـ في النقد الذاتي. مؤسسة الرسالة. بيروت.ط1.1984

ـ حسنة، عمر عبيد

11 ـ الشاكلة الثقافية. المكتب الإسلامي. دمشق. ط1. 1993

12 ــ مراجعات في الفكر والدعوة والحركة. المكتب الإسلامي. دمشق. ط3. 1998.
ــ أبوسليمان، د. عبد الحميد أحمد
13 ــ أزمة العقل المسلم. دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. ط2. 1992
ــ ضاهر، د. مسعود
14 ــ النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ديسمبر 1999
ــ الغزالي، محمد
15 ــ الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر.
ــ القرضاوي، د. يوسف
16 ــ أين الخلل ؟
17 ــ في فقه الأولويات.مؤسسة الرسالة. بيروت. ط1. 2000
ــ الكتاني، محمد إبراهيم وآخرون
18 ــ تجديد الفكر الإسلامي. مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب.ط1. 1989
ــ كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط
19 ــ الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. أيام دراسية. أفريل 1983
ــ النفيسي، د. عبد الله
20 ــ الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية. مكتبة مدبولي. القاهرة. ط1. 1989
ــ يتيم، محمد
21 ــ العمل الإسلامي والاختيار الحضاري. دار قرطبة. الدار البيضاء. المغرب. ط: 1، 1989.

22 ــ مجلة الأمة الدوحة قطر، الأعداد: 25، 46، 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 59، 60، 67، 67.